القرآن وأسبقيته
فى تقويم السلوك الإنسانى

دكتور / شحات حسيب الفيومى

برز علم النفس إلى الوجود وطفق علماؤه يبحثون فى النفس البشرية من حيث تغير سلوكها وتباينه نتيجة التغيير الداخلى فما السلوك الظاهرى إلا تعبير عما يجول داخل الإنسان فعلماء النفس جعلوا النفس البشرية ميدان بحث لهم وسلكوا فى دراستها مناهج مختلفة بدأوها بمنهج الاستبطان وهو التأمل الذاتى وهو أن الإنسان نفسه يثير كامنا فى نفسه ثم يسجل مشاعره وجاءوا بمنهج الملاحظة والتجربة ثم تلاه المنهج الوصفى ثم المنهج التتبعى ثم ختمت هذه المناهج بالمنهج الكلينيكى

وفى هذه المناهج يجرون التجارب والأوصاف المختلفة على الإنسان المراد إجراء التجارب ثم يضعون النتيجة وتكون قاعدة عامة :

سار على هذه القواعد علماء النفس فى دراسة النفس البشرية وسلوكها

تفنيد هذه المناهج .

الذى يعمل الفكر ويسبر غور تلك المناهج يجد نفسه حيال مذاهب بشرية أصحابها يخطئون ويصيبون فعقولهم قاصرة ويعجزون عن دراسة بيئات العالم بأسره حضره ومدره برّه وبحره بل يقومون بدراسة مجموعة من الناس وفى بلد واحد فلا يستطيعون تطبيق تلك المناهج على بيئات العالم كلها .

ومن جهة أخرى هؤلاء العلماء لهم عواطفهم ومشاعرهم التى تتأثر بالظواهر الانسانية فلا يستطيعون الوفاء باحتياجات البشر ولا يكفل هؤلاء العلماء بمناهجهم السعادة الدنيوية أو الأخروية للبشر المنهج الصحيح

والمنهج الصحيح الذى يقوم النفس البشرية ويهذب غرائزها ، ومن الشذوذ يعصمها ومن الأمراض النفسية يقيها وإلى السلوك الحسن يهديها ، ويكفل سعادة الدنيا والآخرة لها هو القرآن الكريم لأن مصدره هو الله الذى اختار الأسوة الحسنة ليبلغة للناس كافة ، وهو الذى خلق الانسان وعلم ما ينفعه ويضره قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) فالذى أحسن خلقه وعلم ما فى داخلة وما غاب عن الناس واستتر وضع له المنهج الذى يصلحه ، ويقوم سلوكه قال تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) فهو منهج تضمن حلولا لكل مشكلات البشر والتشريعات التى تكفل للإنسان السعادة . قال تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شىء) ولقد وضعه للبشرية جمعاء ويستطيع كل فرد أن يطبقه ويؤدى شعائره الميسرة ، فيجد مطبقة الراحة النفسية والصحة البدنية ، فيحاجاته بحق قال تعالى (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) فالذى يدرج على سبله لا تعكر النيب صفو حياته ويظل بعد أو إيمانه وقوة عقيدته عن السلوك النافرة ومن صدف عن هذا المنهج ، ضاقت الدنيا فى عينيه عاش فى قلق وحيرة من أجل مستقبله وذريته ، فيعيش محطم النفس فى الدنيا ويوم القيامة يحشرد الله أعمى تحدق به دواهى يوم القيامة فيذوق العذاب ألوانا قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

ولقد أعتمد أطباء النفس على الدواء الذى يقلل من شدة الشعور بالآلام النفسيه فيسكنها لميقات معلوم وحين يذهب أثر الدواء تثوب الأدواء فتحطم الإنسان لأن الدواء أثر فى خلايا الإنسان العصبية والمريض النفس لا يقدر على الإدلاء بكل ما وقع له ويعذب ضميره أما القرآن فهو شفاء من الأمراض الحسيه والمعنوية فلو صفت نفس الإنسان ذهب كدرها

وتبدد قلق ملح جسدها فالآلام الحسية تنشأ عن الآلام الداخلية قال تعالى عن يعقوب (وأبيضت عيناه من الحزن) فالحزن مؤثر على أعضاء الإنسان .

والقرآن يسعى لوقاية الإنسان من الأمراض فهو شفاء له قال تعالى : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فلفظ مِنْ ليس للتبعيض ولكنه للبيان وقدم على المبين للإهتمام أو هو لإبتداء الغاية فإن القرآن كله شفاء وليس بعضه فهو شفاء من العقائد الباطلة وشفاء من الوسوسة والقلق والحيرة فهو يربط القلب بالله فيسكن ويطمئن ويستشعر الأمن في رحابه لأن القلق نصب والحيرة مرض والوسوسة داء . وشفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان . فهذه الأمور أدواء تصيب النفس البشرية وتسقمها . وشفاء من اليأس والقنوط والحزن فهذه آفات تحطم النفس وتهز كيانها فيحيا صاحبها مختل الشعور والتفكير . وفيه شفاء من العلل الإجتماعية التي تزلزل كيان البنيان الإجتماعي وتذهب بسلامة الجماعة . ولقد سلك القرآن في تقويم النفس البشرية مسلكين أفضلهما علماء النفس وأصاب الوطر بتقويمه هذا :

الأول : حث على الزواج من المرأة الصالحة المؤمنة لأنها البيئة التي ينبت فيها غرس الإنسان قال تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) فهذا خاص بالمرأة المؤمنة التقية سواء كانت حرة أم أمة . ولو أمر المرأة أن يختار لها بعلا صالحاً قال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم) . وهو بهذا السلوك يكون قد خلق للنابتة جوا صالحاً وبيئة قويمة لأنه سيقلدها ويتخلق بخلقها فتصلح وتصلح بعد ذلك .

هذا من ناحية السلوك . ومن ناحية البدن فإنه أمر بأمر يجنب الذرية

الأمراض الوراثية ، فلقد نهى عن الزواج من القريبات قال تعالى :(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسـائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلاجناع عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما) فمن علل التحريم أن الإنسان إذا تزوج أخته أو عمته أو خالته إلى غير ذلك ظهرت الصفات الرديئة لأنها تظهر فى الجنس الواحد . ولقد حرم الله الخمر فهى تؤثر على الحيوان المنوى فتضعفه وتقلل من فرصة الإنجاب وإذا وقع إنجاب فإن ذرية السكير تكون حقلا صالحاً للامراض ولا تكون فى درجة التعقل العادية .

وعند اختيار الزوجة أو الزوج يراعى عدم الأمراض التى تعدى والتى يورثها الآباء والأمهات للابناء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أربع لايجوز فى بيع ولانكاح : المجنونة والمجذومة والبرصاء والقلفاء) رواه الدار قطنى .

الثانى : لقد وضع الله سبحانه وتعالى القرآن منهجاً للبشرية تدرج عليه وتطبق سلوكه وتجتنب نواهيه فمن حاد عن جادته وأهمل العمل بما فيه يلق الجزاء يوم القيامة ولو ساق الله مايدور فى هذا اليوم من البعث والنشور واجتياز الصراط والحساب والميزان والسؤال . وقدم بعض الأمور الغيبية بوصفه للجنة من قصورها ونسائها وأنهارها وطعامها وشرابها وعن خلوها من الأمراض والكروب والأحزان وعن السلام فيها . وهذه لمن أطاع الله ورسوله . ووصف النار ونعت الزبانية والدركات والطعام والشراب واللباس ووصف حال أهلهـا عند العذاب وهم يصطرخون فيها .

وبهذا الأسلوب يكون القرآن قد أتى بما لم يأت به ولم يتطرق إليه علماء النفس فالقرآن قد جعل التقويم للنفس ذاتياً ومن البيئة الصالحة . فالقرآن قمن بتقويم النفس البشرية وسلوكها . وكفيل بسعادتها الدنيوية والأخروية بخلاف الكتب الأخرى فإنها كانت موقوتة بخلاف مناهج علماء النفس فإن بشرا شيدوا صرحها . وهم يخطئون ويصيبون . والقرآن مع هذا يصلح به كل عصر ومصر ولقد تتضمن أموراً جعلته يصلح البشرية إلى أن تقوم الساعة :

أولا : حفظه من التغيير والتبديل أما الكتب السابقة فوقعت فريسة لعبث الأحبار والرهبان فحرفت وأولت تأويلا باطلا . قال تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فللقرآن ماليس للكتب السابقة . قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ثانياً : ليس فيه تناقض فلقد عرى عن الاختلاف فلم يقع فيه إختلاف بين آياته وبين العلم بل واكب الحقائق العلمية التى تؤسس عليها الحضارات . قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا) .

ثالثاً : أتى بكل مايكفل للإنسان السعادة الدنيوية والأخروية فأحسن حلول المشاكل النفسية والبدنية والإجتماعية والاقتصادية والسياسية . قال تعالى : (مافرطنا فى الكتاب من شىء) .

رابعاً : قوانينه ميسرة يسهل على الفرد تطبيقها . وشعائرها فى متناول الفرد فعلها دون صعوبة فلم يكلف الله العبيد منهجاً لايطيقونه بل يستطيع المسلم أن يأتى به وكل منهى فى متناول المؤمن أن يجتنبه قال تعالى: (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) .

خامساً : ألقى القرآن الضوء على الدار الآخرة منذ حشرجة الموت إلى وصف الجنة ونعيمها ووصف النار وعذابها وسلك القرآن هذا الأسلوب ليحض الناس على العمل الصالح والسلوك القويم . وصدق الله إذ قال (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .